الأدب الشَّفَويّ في كتاب الحيوان للجاحظ

"Oral Literature in Al-Jahiz's Kitab al-Hayawan"

م.م حسين عماد صادق

إشراف: أ.د لؤي حمزة عباس

كلية الأداب، جامعة البصرة، البصرة، العراق.

Hussain.emad@ubbasrah.edu.iq

تاريخ الإرسال: 2025/10/ 02	تاريخ القبول: 2025/11/25	تاريخ النشر: 2025/12/30

Abstract:

This study aims to highlight the role of oral narratives in the formation of Arab culture as a culture rooted in orality and locality, and in the nature of dialogic gatherings. This role has been entirely marginalized under the dominance of elitist discourse and the authority of official literature, which historically represented the official power closely intertwined with political authority, thereby obscuring the vital contribution of oral discourse belonging to the language of the common people within the vast popular sphere. The paper presents an introduction to orality, its cultural presence, and its relation to the historical domain in shaping the identity of heritage. It further explores the theme of local orality and ethnographic identity, focusing on the relationship between humans and their environmental and social surroundings. The discussion also addresses Basra and its archaeological memory, examining Al-Jahiz's connection to place—particularly Basra—as a significant space within Arab culture. Finally, the study considers the theme of oral majlis literature as an essential form of Arab culture that reinforces Arab oral identity, concluding with the most prominent findings of the research.

Keywords: (Oral literature, Narration Al-Jahiz, The Book of Animals, Heritage ,Narration)

مُلخّص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى بيان دور المرويات الشفوية في تأسيس الثقافة العربية بوصفها ثقافة قائمة على المشافهة والمحلية، وطبيعة الحوار المجلسي، ذلك الدور المغيب تماماً في ظل سيادة الخطاب النخبوي الرسمي الذي ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالسلطة السياسية، فحجبت الدور المهم للخطاب الشفاهي الذي يتنمي إلى لغة العامة والبسطاء في الفضاء الشعبي مترامي الأطراف، وقد تناولت الورقة مقدمة عن المشافهة وطبيعة حضورها الثقافي وعلاقتها بالمجال التاريخي في تشكيل هوية التراث، بينما تناول موضوع الشفاهية المحلية والهوية الاثنوغرافية علاقة الإنسان بمحيطه البيئي والاجتماعي ، وتناولت موضوعة البصرة والذاكرة الاركيولوجية علاقة الجاحظ بالمكان وتحديداً البصرة بوصفها فضاءً مهماً بالنسبة للثقافة العربية، واخيراً موضوعة الأدب الشفاهي المجلسي بوصفه شكلا مهما من أشكال الثقافة العربية الذي يعزز الهوية الشفاهية العربية وخاتمة بأبرز نتائج الدراسة.

كلمات مفتاحيَّة: الأدب الشفوي، الجاحظ، كتاب الحيوان، التراث، السّرد.

المقدمة:

يَحتَلُّ التُّرَاث الشِّفَوي مكَانَاً مَرمُوقَاً فِي إرثِ الجَاحِظ، إذْ يُشَكِّلُ رَافِدَاً مِنْ الرَّوافِدِ التِي يَستَنِدُ إليْهَا تَشْكِيْلِ مَادَّةِ مَوضُوعَتِهِ المَعرِفِيَّة ، فالجَاحِظُ فِي ظِلِّ تَنَوُّعِ مَصَادِرِهِ عُنِي فِي إنشَاءِ ذَاكِرَةٍ شفَويَّة من الأخبَارِ والأمثِالِ والحِكَايات الشَّعبِيَّة والمُعتَقَدَات، وقَد جَاءَ تَوظِيفُهُ لِهَذَا التُّرَاث فِي سِيَاقِ مَشرُوعِهِ الذِي يَربِطُ المَعرِفَة بالتَّجْرُبَةِ الإنْسَانِيَّة المُتَرَاكِمَة فِي ظِلِّ سِيَاقِهَا المَحَلِّي الذِيْ يُعزِّزُ مِنْ حُضُورِهَا فِي الفَضَاءِ الشَّعْبِي بِوصفِهَا زَمَنَاً دَاخِلَ المَجَالِ التَّارِيخِي، سيَّما أن جُلَّ المَروِيَّات ظَهرَت في أوسَاط شَفويَّة يَقُوم الإرسَالُ والتَّلَقِّي فيهَا عَلَى أُسسٍ متَّصِلَة بالتَّفْكِير الشَفَوي[1].

إنَّ التُّرِاث الشفَوي فِي سِيَاقِهِ التِّارِيخِي لمْ يَكُن هامِشَاً فِي عَمَلِيَّة الكِتَابَة -بِوصفِهَا مُمَارَسَة خَاضِعَة لِتَوجِيهِ المُؤلِّف- بَل هِو وسِيطٌ نَاقِلٌ للمَعرِفَة، سِيَّمَا أنَّ الثَّقَافَةَ العَرَبِيَّة

(1) انظر: موسوعة السرد العربي، عبدالله ابراهيم،ج1، ص27.

بِطَبِيعَتِها تميلُ إلى الذَّاكِرَة [2]، بَينَمَا يَحظَى النَّقلُ الشِفَاهِي بِمَسارٍ مؤَثِّرٍ فِي التُّراثِ العَرَبِي، وفِي هَذَا السِّياق يأتِي الجَاحِظُ مُتَّكِئَاً عَلى هَذَا الإرثِ الشِّفَاهِي بِوصفِهِ جُزْءَاً مِنْ آليَّات مشروعِهِ الثِّقَافِي، لأَنَّهُ حَامِلٌ للقيم والخِبْرَاتِ والتَّجَارُب الإنسَانِيَّة التِي تُعززُ مَشْرُوعِيَّةَ المَعَارِفِ فِي كِتَابِ الحَيوان، يحضُرُ الإرث الشّفَوي فِي كِتَابِ الحَيْوان بِصُورٍ مُتَعَدِّدَة أبرَزُهَا الحِكَايَاتُ الشَّعبِيَّة -التِي يَتَنَاقَلُهَا الرُّواة مِنَ العَامَّةِ- والأمثَالِ والنَّوادِر التِي جَاءَت مُدمَجَةً فِي نَسيجٍ سَرديٍّ مُنَظَّمٍ، مؤَدِيَةً دَورَهَا الغَرَضِي مِن إيضِاحِ فِكرةٍ مُلتبِسة أو ضرب مِثَالٍ على ظَاهِرَة طَبِيعيَّةٍ أو سُلُوكِيَّة، مُشَكِّلَةً ذَاكِرَة ثَقَافِيَّة فِي مُتُونِ مُوسُوعَةٍ معرفيَّة، ما يعكُسُ جَانِبَاً مُهمًّا مِنَ الثقافَةِ العَرَبِيَّة. فالحَدِيثُ عن الرُواةِ والقَّصَاصينَ الذِينَ شَكَّلوا وسِائِطَ سَرديَّة، كَانَت المُشَافَهَةُ النَّاقِل اللغَوي الذِي يُحقِّقُ فِعلَ الاتِّصال مَعَ المُرسَلِ إليهِ[3] سيَّما أنَّ زَمنَ الجَاحِظ كَان زمنَ سمَرٍ ومَجَالِس ، لذَا تَهيَّأ لكِتَابُ الحِيْوان أن يَحفِظَ التُّراث الشفوي عِبرَ إعتِمَاد ذَاكِرَة من المُمَارسات الشفويَّة الدَاخِلَهُ. يَتَعامَلُ الجَاحِظُ مَعَ الذَّاكِرَةِ ـ بوَصْفِها وِعاءً لِلحِكاياتِ المُتوارَثَةِ، و فضَاءً مَعْرِفِيّاً مُتَنَوّعاً يَضُمُّ أَخبارَ العَرَبِ وأَشعارَهُم، وحِكَمَهُم وتَجارِبَهُم، وَما تَناقَلَتهُ الأَلْسُنُ مِن غَرائِبِ الطَّبيعَةِ وأَحوالِ الحَيوانِ، فيَدمِجُها في سِياقٍ نَصّيٍّ يُمنِحُها بُعدًا تَوثيقِيًّا وأَدَبِيًّا في آنٍ واحِدٍ. إنَّ هذِهِ الذَّاكِرَةَ تَتَجَلَّى في الرِّواياتِ المُسنَدَةِ بِأَسْماءِ الرُّواةِ، و في تِلكَ الأَخبارِ المَجهولَةِ المَصدَرِ الَّتِي تَحمِلُ بَصمَةَ التَّناقُلِ الشَّعبِيِّ، حَيثُ يَظهَرُ فِيها أَثَرُ الغَريبِ والعَجيب ، مِمَّا يُعَكِّسُ طَبيعَةَ المخيال الجَمعِيِّ لِلعَرَبِ في بِيئَاتِهِمُ المُتَباينَةِ. يَحرِصُ الجاحِظُ عَلى إبرازِ تَنَوُّعِ مَصادِرِ هذِهِ الذَّاكِرَةِ، فَتَراهُ يُورِدُ ما سَمِعَهُ مِنَ الأَعرابِ في البَوادِي وَما نَقَلَهُ الحَضَرِيُّونَ في الأَمصارِ، ويُوازِنُ بَينَ ما هُوَ مَأْثورٌ شَعبِيٌّ وَما هُوَ مُدَوَّنٌ في كُتُبِ السّابِقِينَ، فيَخلُقُ تَداخُلًا بَيْنَ الشَّفَوِيِّ وَالمكتوبِ، ويُمنِحُ القارِئَ صُورَةً حَيَّةً لِعالَمٍ مَعرِفِيٍّ ما زالَ في طَورِ التَّحَوُّلِ مِنَ التَّداوُلِ الشَّفويِّ إِلى التَّوثيقِ الكِتابِيِّ. وَلَعَلَّ ما يُمَيِّزُ الجاحِظَ أَنَّهُ لا يَكتَفِي بِالنَّقلِ المُباشِرِ، بَل يُعيدُ تَشكِيلَ المادَّةِ الشَّفاهِيَّةِ عَبرَ أُسلُوبِهِ الجَدَلِيِّ السَّاخِرِ، فيَنْقُدُ المُبالَغاتِ ويَختَبِرُ مِصداقِيَّةَ الرِّواياتِ، وفي أَحيانٍ أُخرَى يُوَظِّفُ الخُرافَةَ أَوِ العَجيبَ لِتَوسِيعِ أُفُقِ المُتَلَقِّي وَإِثارَةِ تَساؤُلاتِهِ. بِهذَا

(2) انظر: الشفاهية والمكتوب في الاسلام، غريغور شولير، ت: عبد الجبار ناجي، المركز الاكاديمي للابحاث، العراق-كندا، ط1، 2020،ص 89./ * يتفحصُ الكتاب مجموعة من الاخبار تتعلق بوكيع الجراح(128 –197هـ) الذي نبذ الورق والكتابة وفقا لجرلدتسيهر، نقلا عن الخطيب البغدادي.

(3) انظر: الشفاهية والكتابية، والتر. اونج ، ت: حسن البنا عز الدين، سلسلة عالم المعرفة،(182) ص41-42

المَعْنَى تُصبِحُ الذَّاكِرَةُ الشَّفاهِيَّةُ في الكِتابِ ، فَضاءً تَفاعُلِيًّا يلتَقِي فِيهِ التَّاريخُ الشَّعبِيُّ بِالعِلمِ الطَّبِيعِيّ، وَالخَيالُ الأدَبِي بِالتَّحقيقِ العَقلِيّ، في نَصٍّ يُزاوِجُ بَينَ سُلْطَةِ الرِّوايَةِ الشَّفوِيَّةِ وَسُلطَةِ الكاتِبِ العارِفِ الَّذِي يُحاوِرُها وَيُعيدُ صِياغَتَها في قالِبٍ أَدَبِيّ.

1. الشّفَويَّة المَحَلِّيَّة والهُويَّة الاثْنوغرافيَّة

يُقَدِّمُ الجَاحِظُ فِي مَجمُوعِ مَروِيَّاتِهِ جُزءاً مِن المَعرِفَة الأثْنُوغرافيَّة والتِي تُحِيل غَالِبَاً الى مَعرِفَةِ مُجتَمَعَات لم تَعرِف الكِتَابَة بِشِكْل مُنَظَّمٍ وما تَزَالُ في طَورِ البِدَائيَّةِ أو المَحليَّة[4] حَيثُ يُعَاد تَمثِيلُ كُل مَا هو شِفَوي بِشِكلٍ مَكتوبٍ فَتَكونُ الثَّقَافَة المحليَّة نَمَطَاً إثنوغْرافيَّاً مَكتُوبَاً بِوَصفِهَا حَامِلَةً لأنْمَاطِ العَيْشِ والمُعتَقَدَات والطُّقُوس والخِطَابَاتِ اليَوميَّة ذَاتِ الحِس الكَرنَفَالِي، حَيثُ تَتَّصِلُ بالمَجَالِ التَّارِيخِي عِبْر سِيَاقَاتٍ سَرِدِيَّة، وبِهَذا الإطِار يُؤَسسُ الشَّفَوي ذَاكِرَةً إثنوغَرافيَّة، سيَّمَا أنَّ من سمَات الجَاحِظ هو العَمَل المَيدَانِيُّ الرَّاصِد الذِي يَتَّخِذُ مِن تَسجِيلِ البَيَانَات المعرِفيَّة وطَرحِها نِظَاماً للتفكِير، عَلَى وِفقِ هذهِ الآليّة يَقومُ بِرَصدِ حَيَاة الشُّعوب وهذَا جَوهَرُ العَمَلِ الأثْنوغرَافِي الذي يَشتَرِكُ بِشَكلٍ صَرِيحٍ أو خَفِي مَع حَيَاة النَّاسِ اليوميَّة مُشَاهِداً لِمَا يَحدثُ مُستَمِعاً لِما يُقَال[5] ، إنَّهَا شَبَكَةٌ مِنَ العَلَامَاتِ الثَّقَافِيَّة، التِي تَتَشَكَّلُ في فَضاءٍ شَفَوي، من أخبَارِ العَامَّةِ وأحَادِيثِهَا، تُصَاغُ فِي خِطَابٍ مَعرِفِي، عِندَمَا تتحَولُ المَعرِفةُ إلى مَجَالٍ لتَّأمُّلِ أنمَاطِ السُّلوكِ والعَادَات. إنَّ المَحَلِّيَةُ لا تَشَكِّلُ انغِلاقَاً على الذَّات بِل مَدَخَلاً لِفِهمِ الإنسَان ومُحِيطِهِ إذ تَتَحَوَّلُ الثَّقَافَة المَحليَّة إلى مَوضُوعٍ للمَعرِفَة، مَا يعَدُّ دَالَّاً عَلَى هَويَّة جَمَاعيَّة، فَهِي ليسَت تَحديداً مَكَانِيَاً فَحسب، إنَّمَا شِكلٌ طُقُوسِيٌّ مُتَمَثِّلٌ في نَمَط سَرِدِي شِفَوي، وفِي كِتَابِ الحَيوانِ نَماذجَ عَدِيدَة دَالَّة مِنَها تَوثيقُ سَمَكُ الاسبُور كَظَاهِرَةٍ مَحليَّة مُتَدَاوَلَة بَينَ العَامَّة: " وهذا بحر البصرة والأبلّة، يأتيهم ثلاثة أشهر معلومة معروفة من السنة السّمك الأسبور، فيعرفون وقت مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره، فلا يمكث بهم الحال إلّا قليلا حتّى يقبل السّمك من ذلك البحر، في ذلك الأوان، فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من السّنة، وذلك في كلّ سنة مرّتين لكل جنس..."[6] ، تَبْدُو مِرويَّةُ الجَاحِظِ عَن

(4) انظر: مَدْخَل إلى الاثنولوجيا، جاك لومبار، ت: حسن قبيسي ، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٧، ص٩-١٠

(5) انظر: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ، سمير الخليل، دار الكتب العملية، بيروت، ص16.

(6) كتاب الحيوان، ج4، ص101.

طَبِيعَةِ السَّمَكِ فِي بَحرِ البَصْرَة والأَبْلَة رؤيَةً تَوثِيقيَّة، تَمنَحُ النَّصَ قِيمَة أثنُولوجيَّة مُبَكِّرَة، إذ لا يُحِيلُ السَّارِدُ إلى الظَّاهِرَة البَحْرِيَّة بِوصفِهَا هَامِشَاً بِيئيَّاً عَابِراً، بِل يُسَجِّلُهَا ضِمنَ سيَاقٍ زَمَنِيّ مَعرِفِي يُحِيلُ إلى خِبرَةٍ بِيئيَّةٍ مُتَوارَثَةٍ لِجَمَاعَةٍ سَاحِليَّة بَحرِيَّة تَنتَمِي للمَكَان، فالإشَارَةُ إلى سَمَكِ الاسبَور ومَواسِمِ قُدُومِهِ تَكشُفُ عَن نِظَامٍ تَقويمِي مَحَلِّي قَائِم عَلى مُلاحَظَةِ الطَّبِيعَة وتَسجِيلِ إيقَاعِهَا المَعِيشِي تَبَعَاً لِدَورَتِهَا، وهُو مَا يُشَكِّلُ إحدى صورِ المَعرِفَةِ البِيئيَّة التَّقلِيدِيَّة التِي تَحتَفِظُ بِهَا الجَّمَاعَاتُ السَّاحِليَّة عبرَ تَنَاقُلِ التَّجْرُبَةِ والخِبرَة ، حيثُ يَتَشَكَّلُ الفِعلُ الطُّقُوسِي، مُعَبِّراً عَن عَلاقَةِ الإنْسَان بِفَضَائِهِ الطَّبِيعِي. وَيَرصُدُ الجَاحِظُ فِيء مَوضِعٍ آخَرَ جَمَاعَةُ الخَنَّاقِينَ[7]* ، وهم جَمَاعَةٌ يَخنُقُون أعداءَهُم ممنْ خَالَفَهُم وقَتَلهم بالاغتِيَال، ويَقُولُ زَعِيمُهم أبو مِنصُور العَجلِي: مِن خِالَفَكُم فَهُو كَافِر مُشرِك فاقتُلُوه فَإنَّ هَذا جِهَادٌ خَفِي[8]، وقَد جَاءَ فِي كِتَابِ الحَيوان ذكْرُ هَذهِ الجَّمَاعَة التِي تُلازِمُ صُحبَةَ الكِلابِ، وأنهُم لا يَنزِلُونَ إلَّا فِي طَرِيقٍ نَافِذ ويَكُونُ خَلفَ دُورِهِم امَّا صَحارى وأمَّا بَسَاتِينَ وأمَّا مزَابِل وأشبَاه ذلكَ، وفِي كُلِّ دارٍ كِلابٌ مَربُوطَةٌ ودُفوفٌ وطُبُولٌ ، ويَجعَلونَ على أبوابِهم مُعلِّمَ كُتَّابٍ مِنهُم، فإذا خَنَقَ أهلُ دارٍ مِنهُم إنسَانَاً ضربَ النِّسَاءُ الدُّفُوفَ، وضَرَبَ بَعضُهَم الكِلابَ، فَيسمَعُ المُعَلِّمُ فيصيحُ بالصِّبيَان: انبَحُوا! فأجَابَهم أهلُ كُلِّ دارٍ بالدُّفوفِ والصُنُوج، وهيَّجُوا الكِلابَ فلو كَانَ المَخنُوقُ حِمَارَاً لَمَا شَعَر بِمَكانِهِ أحد[9]، إذ يُوثِّقُ الجَاحِظُ هَذِهِ الجَّمَاعَة بِوصفِهَا جُزءاً مِن البُنَى الاجتمَاعيَّة المَحلِّيَة، إذ يَرصُدُ مَوقِعَهَا، وثَقافَتَهَا ومُمَارَسَاتِهَا الشَّاذَّة مِثلُ القَتلِ بالخَنقِ، وما يُصَاحِبُ ذلكَ مِن طُقُوسٍ غَريبَة كنُبَاحِ الأطفَالِ وضربِ الدُّفوفِ وضربِ الكِلاب، حَيثُ تُجمعُ البَيَانات في مَروِيَّةٍ نتاج ما تَنَاقَلَتهُ المَروِيَّات الشَّفَوِيَّة عَنهُم، ومِنَ الظَّواهر تِلكَ رَصدُهُ للعَوامِ والسَّوقَة مِثل ما جَاء فِي خَبَرِ فَرجِ الحَجَّام على لِسَانِ أهل المِربَد: " وكان أهل المربد يقولون: لا نرى الإنصاف إلا في حانوت فرج الحجّام، لأنّه كان لا يلتفت إلى من أعطاه الكثير دون من أعطاه القليل، ويقدّم الأوّل ثم الثاني

(7) وهؤلاء اتباع أبي منصور الكسف العجلي، الذي زعم أن الإمامة دارت في أولاد علي ، حتى انتهت الى ابي جعفر محمد بن علي الباقر، وانه خليفة الباقر، وثم الحد في دعواه فزعم انه عُرج به الى السماء وان الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له : يابني بلغ عني، ثم انزله الى الارض، وزعم انه الكسف الساقط من السماء، المذكور في الاية: ((وإن يروا كسفا من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مركوم)) / انظر: الفرق بين الفرق، عبد القاهر بن طاهر محمد البغدادي الاسفرائيني التميمي(ت:429هـ) تحقيق: محمد محب الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص261.

(8) انظر: فرق الشيعة، الحسن بن موسى النوبختي(القرن الثالث)، منشورات الرضا ، بيروت=ط1، 2012، ص78.

(9) انظر: الحيوان، ج2، ص264.

ثم الثالث أبدا حتى يأتي على آخرهم، على ذلك يأتيه من يأتيه، فكان المؤخّر لا يغضب ولا يشكو"[10] ، إذ تَتَّضِحُ الرُّوحُ الشِّفوية والطَّبِيعَةُ المَحلَّيَّة، انطِلاقاً مِن أهلِ المِربَد مَا يَجَعلُ الخِطَاب في فَضاءٍ يَتَّكِئ عَلَى تَدَاولِ الكَلامِ في الأسوَاقِ، هَذهِ الصِّيغَة التِي تُعَزِّزُ مِن حُضُورِ الرِّوايَة الشَّعبِيَّة في السَّرد التَّارِيخي عِبْرَ مَعرِفَةٍ إثنوغرافيَّة تسَجِّلُ العاَدَات والمعَاييرَ السُّلوكيَّة فِي بيئَة مُحَدَّدة زَمَانيَّاً ومَكَانيَّاً، ومن هذا المَنظور فإنَّ المِربَد لَيسَ مَوقِعاً جُغرَافيَّاً فحسب، بل فَضَاءٌ ثَقَافِيٌّ مُتَنوّعٌ بِتَنوُّعِ مُريديهِ، وإن شَخصيَّة فَرج الحَجَّام مَنَحَت هذا الفَضَاء مَحَليَّتَهُ.

ومِن المَرويَّاتِ المحَليَّة ذَات الطَّابِع الاثنُوغرَافِي، قَولَ الجَاحِظِ: " وقد خبّرني صديق لي أنّه حبس كلبا له في بيت وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طبّاخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثمّ أحدّ سكّينا بسكين، فنبح الكلب وقلق، ورام فتح الباب؛ لتوهمّه أنّ الطّبّاخ قد رجع من السوق بالوظيفة، وهو يحد السّكّين ليقطع اللّحم.!! قال: فلما كان العشيّ صنعنا به مثل ذلك، لنتعرّف حاله في معرفة الوقت، فلم يتحرّك.!! قال: وصنعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق إلّا قلقا يسيرا، فلم يلبث أن رجع الطّباخ فصنع بالسّكّين مثل صنيعي، فقلق حتّى رام فتح الباب.!! قال فقلت: والله لئن كان عرف الوقت بالرّصد فتحرّك له، فلما لم يشمّ ريح اللحم عرف أنّه ليس بشيء، ثمّ لما سمع صوت السّكّين والوقت بعد لم يذهب، وقد جيء باللحم فشمّ ريح اللّحم من المطبخ وهو في البيت، أو عرف فصل ما بين إحدادي السّكّين وإحداد الطباخ، إنّ هذا أيضا لعجب."[11] ، تُجَسِّدُ هَذِهِ المَروِيَّة الطَّابِعَ المَحَليَّ الشِّفَوي إذ تَنقُلُ عَن صَدِيقٍ خَبَرَ الجَاحِظَ شِفَاهَاً عَنْ حَدَثٍ يَومِيٍّ لكَلبٍ يُمَيِّزُ بَينَ عَودَةِ الطَّبَّاخِ مِنَ السُّوقِ مِنْ خِلالِ صَوتِ السِّكِين ورَائِحَةِ اللحَمِ كَعَلامَةٍ مُرتَبِطَةٍ بِحُصُولهِ عَلَى اللحَمِ ولَكِنَّهُ في تَجرِبَةٍ أُخرَى لَم يَنخَدِع رُغمَ تِكْرَارِ الصَّوت؛ لِغِيَابِ الرَّائحَةِ، مِا يَعكُس فِهمَاً عَمِيقَاً قَائِمَاً عَلَى التَّجرُبَه؛ بِإدراكِ الحِيوانِ محِيطَه عِبرَ الحِس من خِلالِ مُمَارَسةٍ يَوميَّةٍ مَلينَةٍ بالمُلاحَظَات الدَّقِيقَة حَولَ المَعرِفَةِ السُّلوكيَّة للحَيوان حَيثُ تُشَكِّلُ عنَاصِرَ مِثْل: الكَلب، الطَّبَاخ، السِّكين، السُّوق، فَضَاءً سَردِيَّاً مُشبَعَاً بالمَحَليَّة، كَاشِفَةً إنتقَال المَعرِفَة التَّقلِيديَّة بِشِكلٍ شِفَوي إلى جِوٍ مِنَ التَأمُّل والفِهم، حيثُ يتَّضِحُ السُّلوكُ الحيواني عِبر التَّجرُبَة والاختِبَارِ البَشَرِي، ومِمَّا تَقَدَّمَ يَتَّضِحُ بأنَّ كِتَابَ

(10) الحيوان، ج7، ص 261.

(11) الحيوان، ج2، ص120.

الحَيوانِ عَمَلٌ تُشَكِّلُ المَحَليَّة والهُويَّة الاثنُوغْرافِيَّة حُضوُرُهَا المُؤثِّرِ فِيهِ، وفِي ضَوءِ مَا تَقَدَّمَ: تَمَثِّلُ الحَافَّةُ المحليَّةُ للمرويَّات نَسِيجَاً حاضِنَاً للهُوِيّة الإثنوغَرافيَّة، حِيثُ تَتَجَلَّى مَلامِحُ البِيْئَة وخُصُوصِيَّات الأمكِنَة وتَفَاصِيلِ الحَيَاةِ اليَوميَّة فِي صَميمِ نَسيجٍ سَرديّ، حتى غَدَت المَحليَّة نَمَطَاً جَاحِظيَّاً مؤَثِراً مُنفَتِحاً عَلى الحِقْلِ العِلمِي بوصفِهِ مَوضُوعَاً، وعَلى الجَّمالِي الأسلوبِي الثَّرِي بِلُغَتِهِ وإيحَائِهِ البَلاغِي الذِي يَتَآزَرُ فيهِ التّوثيقُ لما هو شفوي ، وعَلى هَذَا النَّحو يُصبِحُ كِتَابُ الحَيوانِ مِرآةُ لِوعي الجَاحِظ بِخُصُوصيَّةِ مَجَالِهِ الثَّقَافِي والاجتِمَاعِي وشَاهِدَاً على مَشروعٍ مَعرفِيّ، فَتَغْدُو المَحليَّة جَوهَراً كَاشِفَاً ، والمَوضوعُ العِلمِي جِسراً نَاظِمَاً، والصياغَةُ الأدِبيَّة روحَاً مهيمنَة .

2. البَصرةُ والذَاكِرَة الإركيولوجيَّة

يَرتَبِطُ مَفهُومُ الأركيولوجيا بالآثَار بِوصفِهَا شَاهِدَاً حَيَّاً عَلَى مَسَار التَّارِيخ ومَا شَيَّدهُ وجُودَه عَبر الزَّمن فَهِي بالأسَاسِ خِطَابٌ مَعرِفِيٌّ ينطَوي علَى مَنهَجٍ فِي قِراءةِ المَاضِي وآثَارِه وإنَّ هذهِ القِرَاءَة قائمَة علَى أساسِ التَّنقِيب والحَفر فِي الآثَارِ المَاديَّة الملموسَة والنّظُم الاجتِمَاعيَّة[12]. إنَّ الحَدِيثَ فِي المَجَالِ التَّارِيخي وتَمثُّلِهِ فِي الثَّقَافَةِ العَرَبِيَّة عُمُومَاً وفِي كِتَابِ الحَيوان خُصُوصَاً، يَقودُ إلى البَحثِ فِي طَبِيعَة العَقل العَرَبِي ووعيهِ المَاضَوي ، حَيثُ دَأبَ الإنْسَانُ العَرَبِي على عِنَايَتِهِ الفَائِقَة بالآثَار والتَّنقِيبِ عَن صُورَةِ المَاضِي وحَفرِ مَلامِحِهِ والنَظَّرِ إلى تِلكَ الأمكنةِ نَظرَةً طُوبَاويَّة[13]، حَتَّى غَدَتِ الهُويَّة التِي صَدَرَتهَا الثَّقَافَة العَرَبِيَّة رَاسِخَة فِي المَاضِي بَحثَاً عن صُورَتِهِ وإعادَةِ إنتَاجِهَا عبرَ اللغَة، لَذا شَكلَّت الأطْلالُ بُعدَاً أركُيولوجيَّاً واضِحَاً فِي الشِّعرِ العَرِبِي، وإن الحَدِيث عن الشِّعر يستَدعِي الوقُوف على بُنَى الوَعِي التِي يُشَكِّلُ الشَّاعِر مِنهَا نُصوصَهُ وهِي بُنى أركُيولوجيَّة تَحتَفِي بالأطْلالِ والحِجَارَةِ والآثَارِ ومَلامِحِ الصَّحراءِ والأمكِنَة التِي تَستَدعيهَا الذَّاكِرَة[14]. لَقَد كَانَتِ الأطْلالُ والمَنَازِلُ والقِفَارُ بِمَثَابَةِ رمُوزٍ ثَقَافيَّة تُشَكِّلُ المَادَّةَ الخَام للوعِي الأدَبِي[15]، فالآثَارُ لَيست بَقَايَا منسيَّة وصَامِتَة ، إنما مَادَّة ذَاتَ دِلالاتٍ عَمِيقَة فِي الثَّقَافَةِ

(12) انظر: علم الآثار بين النظرية والتطبيق، عاصم محمد رزق، مكتبة مدبولي، 1996، ص12-15

(13) انظر: في تاريخ الادب الجاهلي، علي الجندي، دار التراث، ط1، 1991، ص 449.

(14) انظر: تاريخ الادب العربي، شوقي ضيف، ج3، ص163

(15) انظر: اثر البيئة في الشعر الجاهلي، حسن باشو، مجلة الأديب، العدد3، 1مارس 1947، ص 33.

العَرَبيَّة، وإنَّ هَذا الأثَر الإركيولُوجي لَيمتَدُّ وَيَتَمَثَّلُ فِي أشكَالٍ أجَنَاسيَّة غَيرَ الشِّعر؛ لأنَّ التَكوين الثَّقَافِي هو ذَاته، فَنَجِدُ عِندَ الجَاحِظ فِي القَرنِ الثَّالث شَغَفهُ بالبَصرَة حَيثُ تَدُور المَرويَّاتُ الشفويَّة فِي فَضَاءٍ إركيولوجي تَحضُرُ فيهِ الآثَارُ البِيئيَّة تمثيلا للمَكَانِ بوصفِهَا كِيَانَات حِيَّة تَتَقَاطَعُ فِيهَا عَنَاصُر الطَّبِيعَة مع أنْمَاطِ العَيشِ البَشَرِيّ ضِمنَ شَبَكَةٍ من التَّفَاعُلات، عْنَدِمَا يَكُونُ المكَان فَضاءً مُمتلئاً بالرُّمُوزِ والعَلامَاتِ، إذ لِكُلّ أثرٍ فيهِ دِلالَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِتَاريخِهَ الثِّقَافِي، فالبَصَرَةُ بِعَينِ الجَاحِظ نَمُوذَجٌ مُتَعدِّد الثَّقَافَات نَظَراً لِمَوقِعِها الجغرَافِي، حَيثُ يُنشئ ذَاكِرَةً للمَدِينَة من خِلالِ مَرويَّاتٍ شفَويَّة أعيد انتَاجَها ثَقَافِيَّاً فِي كِتَاب الحَيوان[16]، ومِنْ تِلكَ المَرويَّات الأركيولوجيَّة ما أخبَر النَّظَّامُ الجَاحظَ شِفَاهَاً: "وحدّثني إبراهيم النّظام قال: وردنا فم زقاق الهفة، في أجمة البصرة، فأردنا النفوذ فمنعنا صاحب المسلحة ، فأردنا التأخّر إلى الهور الذي خرجنا منه، فأبى علينا. ووردنا عليه وهو سكران وأصحابه سكارى، فغضب على ملّاح نبطيّ، فشدّه قماطا، ثم رمى به في الأجمة، على موضع أرض تتصل بموضع أكواخ صاحب المسلحة. فصاح الملاح: اقتلني أيّ قتلة شئت وأرحني! فأبى وطرحه.."[17]، أن دِلالَةُ الفِعل المَاضِي (حَدَّث) يُحِيل إلى طَبِيعَة المَرويَّة وشِكلِهَا الشَّفوي إذ يَظْهَرُ النَّص المَروي عَلَى لِسَانِ ابراهيمُ النَّظَّام بِوصفهِ النّاقِلَ الشّفوي لآثَارِ البَصْرَةِ البِيئيَّة القَدِيمَة مِنَ: الأجِمَّة، والهَور ، وزُقَاقِ الهَفَّة بِوصفِهَا عنَاصِرَ جُغرافِيَّة مُحَمَّلَة بِذَاكِرَةِ المكَان ، ويَتَجَسَّدُ فِي شَخصِيَّةِ المَلَّاح النبطي بعدٌ آخر مِنَ المَشهَدِ إذ يَرمُزُ للفِئاتِ العَامِلَة المُرتَبِطَة بالماءِ والمِلاحَةِ والزِّرَاعَة المُضطَهَدَة وهِي تَتَعرَضُ الى عُقُوبَةٍ جَسَدِيَّة مُذِلَّة تَتَمَثَّلُ في الشَّدِّ بالقِمَاط والطَّرحِ على الأجِمّة نَظَراً لِمُوقِعِها مِن سُلَّم القُوَّة الاجتِمَاعِي.

ومِنَ الآثَارِ الجُغرَافِيَّة المُهِمَّة لِبيئَةِ البَصرَة وِفرَةُ السُّفُنِ دِلالَة على طَبِيعَتِها البَحريَّة والتِّجَاريّة فقد أشَارَ الجَاحِظُ إلى الطَّابعِ البَحِري الآثَاري في مَرويَّاتهِ حَيثُ قَال: " والجرّيّ يأكل الجرذان ويصيدها، وهو آكل لها من السّنانير والحيّات والكلاب السّلوقية، ويأكل الجرّيّ جميع جيف الموتى. والسّمك يأكل السّمك ويأكل من كلّ حبّ ونبات يسقط في الماء. وإن استفهم مستفهم، أو اعترض معترض فقال: وكيف يأكل الجرّيّ الجرذان، والجرذان أرضيّة بيوتيّة،

([16]) كتاب الحيوان مصدراً لدراسة تاريخ البصرة، (مصدر سابق)ص288-289.

([17]) الحيوان ، ج5، ص399

والجرّيّ مائي؟ قيل له: يخبّرنا جميع من يبيت في السُّفُن وفي المشارع، في فيض البصرة عندنا، أنّ جرذان الأنابير، تخرج أرسالا بالليّل كأنّها بنات عرس، والجرّيّ قد كمن لهنّ وهو فاتح فاه، فإذا دنا الجرذ من الماء فعبّ فيه التهمه ليس دون ذلك شيء، بشجر فم واسع"[18] ، تُقَدِّمُ المَرويَّة صُورَةً إركيولوجيَّة أُخرى للبَصرَةِ ، عَن آثَارِهَا البَحْرِيَّة مِنْ سُفن ميَاهٍ وأسماكٍ وجُرذَان ومَشَارِع ، إذْ تُوفِرُ وثَائِقَ شفويَّة لتِلكَ الآثَارِ، فالجُرذَانُ التِي تَخرُجُ ليلاً مِنَ الأنَابِير وكَأنَّهَا بَنَات عُرسٍ، والجِريُّ الذِي يَتَرَصَّدُهَا يُمَثِّلُ تصويراً دَقيقاً للوَاقع المَجِليّ سيَّمَا إذا تأملنِا العَلاقَة طَويلَة الأمَد بينَ الإنسَان والجُرذ عبر التّاريخَ، حيثُ يتجَلَّى البُعدُ الإركيولوجي مِنْ خِلالِ هَذهِ العَلاقَة الآثَاريَّة التَّاريخيَّة ويَليْها حضُور السَفينَة بِوصفَهَا إرثَاً لحَضَارَةٍ مَائية فِي المَكَان تأوي الجُرذَانَ فَتَكُونُ قَرِيبَةً مِنَ المَاء حيثُ الجِّريُّ الذي يَتَصَيدُهَا، وفِي مَوطِنٍ آخرَ مِنَ الكِتَاب، يَذْكُرُ الجَاحِظُ مَجمُوعَةً مِنَ الأمَاكِن و المَنَازِل البَصريَّة المِعرُوفَة فِي زَمَانِهِ مِثْلُ سِكَّةُ بَنِي مَازِن[19] و وسفوان[20] ، و الأبُلَّة[21] ، والخُرَيبَة[22] ، واجمّةُ البصرة[23] وهِي مَواضِعُ مشهورَة قَدِيمَا في البَصرَة فَضلاً عَنْ حُضُورِ المِربَد[24] في الكِثِير من المَرويَّات. تُشَكِّلُ هَذِهِ الامْكِنَة والمواقِع الطَّابِع المَحَلِّي الاجتِمَاعِي للبَصرَة، فَضْلاً عن مَجموع المَرويات الشَّفويَّة التِي تَمثلُ الجَانب الآثَارِي للمَكَان فإنَّ حُضُورَ البَصرَة فِي كِتَابِ الحَيوانِ لا يَقتَصِرُ عَلَى الإشَارَاتِ العَامَّةِ إلى مَكانَتِها أو جُغْرَافِيَّتِهَا، بَل يَتَجَسَّدُ عِبْرَ مَشَاهِدَ حَيَاتِيَّة دَقِيقَة، تُتِيحُ للقَارِئ أَنْ يَستَعِيدَ . مِن خِلالِ النَّص . مَعمَارِ الحَارَاتْ، وأَنمَاطِ التَّفَاعُل، وأَصوَات المَكَانَ ورَوائِحِه. هذه المرويَّات، التِي تَحْمِلُ تَفَاصِيلَ يَومِيَّة وَشُخُوص وآثَارَ مَحَليَّة، تُمَثِّل طَبَقَةً أركيولوجيةً مِنْ الذَّاكِرَة المُدَوَّنَة، حَيْثُ تَتَقَاطَعُ السَّردِيَّة الشفوي مَعَ التَّسْجِيل الأَدَبِي التَّوثِيقي لِتُشَكِّلَ أرشِيفَاً نَابِضَاً لِمَدِينَة حَيَّة فِي وَعِي وَكِتَابَة الجَّاحِظ .

3. المُشَافَهَة والشَّكل المَجلِسِي

[18] الحيوان ،ج7، ص146

[19] الحيوان، ج2: 231

[20] الحيوان، ج3: 462

[21] الحيوان، ج1: 225، 281، ج2: 36/ ج4: 101، 316، 369، 442.

[22] الحيوان، ج2: 252،ج3: 356

[23] الحيوان،ج5، ص399

[24] الحيوان ،ج1: 258، 260/ ج6: 187،ج7: 262

يَتَميَّزُ كِتَابُ الحَيوانِ للجَاحِظِ بِتَنَوُّعِ اشكَالِهِ الخِطَابِيَّة مِنْها ما يَستَنِدُ إلى تَقَاليدِ المُشَافَهَة مِثلَ المَجَالسِ الأدَبيَّةِ التِيْ كَانَت مِحوَرَاً أسَاسيَّاً في الحَيَاةِ الثَّقَافِيَّةِ والاجتِمَاعيَّة فِي العَصر العبَّاسِي، لقَد شّكَّلَ المَجلِسُ فَضَاءً اجتِمَاعيَّاً يَجتَمِعُ فِيهِ العُلمَاء والفُقَهاءُ وسَدَنَةُ الأدَبِ، حَيثُ تَتَعدَّدُ الأصواتُ وتَختَلِفُ المَشَارِبُ الفِكريَّة. وقَدِ استَطَاعَ الجَاحِظُ أنْ يَستَثمِرَ هذهِ الصيغَة المَجلِسيَّة ويَوظِّفَهَا في كِاتَابِ الحَيوان، لِتُمَثِّلَ امتِدَاداً لآليَّةِ القَولِ الشَّفوي، وجُزءَاً من استِرَاتِيجية الجَّاحِظ في بِنَاءِ نَصِّهِ إذْ حَوَّل المَرويَّاتُ التِي تَتَأَسسُ فِي الفَضَاءِ المَجلِسي إلى مَادَّةٍ مَكتُوبَةٍ ذات قِيمَة عِلميَّة وأدَبيَّة، إذ جَاءَ فِي الكِتاب: " وأنشد ابن داحة في مجلس أبي عبيدة، قول السّيّد الحِميَريّ أترى ضهاكا وابنها وابن ابنها ... وأبا قحافة آكل الذّبان... كانوا يرون، وفي الأمور عجائب ... يأتي بهنّ تصرّف الأزمان ...زأنّ الخلافة في ذؤابة هاشم ... فيهم تصير وهيبة السّلطان، وكان ابن داحة رافضيّا، وكان أبو عبيدة خارجيّا صفريا، فقال له: ما معناه في قوله: «آكل الذّبّان» ؟ فقال: لأنّه كان يذبّ عن عطر ابن جدعان. قال: ومتى احتاج العطّارون إلى المذابّ؟! قال: غلطت إنّما كان يذب عن حيسة ابن جدعان. قال: فابن جدعان وهشام بن المغيرة، كان يحاس لأحدهما الحيسة على عدّة أنطاع فكان يأكل منها الراكب والقائم والقاعد فأين كانت تقع مذبّة أبي قحافة من هذا الجبل؟! قال: كان يذبّ عنها ويدور حواليها. فضحكوا منه، فهجر مجلسهم سنة"[25] ، يُقَدِّمُ النِّصُ المَجلسَ فضَاءً ثَقِافيَّاً يُبْنَى على أساسِ المُشَافَهَ تَتَحَرَّكُ فيهِ عَنَاصِرُ السِّردِ عبد تعددِ الأصواتِ التِي تَدخُلُ فِي فَضاءِ تَحَاوريّ ما يَعكُسُ الطِّبِيعَةَ الحواريَّة للمَجالِسِ بِوصفِهَا مَشَهدَاً مُصغَرَاً من مَشَاهِدِ الثَقَافَة، إذ يبدأ النَّصُ بإنشَادِ الشِّعر ثمَّ يتَفرعُ ألى سؤالٍ وجَوابٍ ثمَّ تَصحيحٌ لُغَويٌّ وسُخرِيَةٌ ثمَّ النَّتِيجَةُ وهِي هَجْرُ المَجْلِسِ أي الاقصَاءِ الرَّمزِي والاجتِمَاعَي بهذَا يُصبِحُ المَجلسُ فضاءً لا يَحتَضِنُ فَقَطِ القَولَ بَل يُحَكمُ المَتَكَلِّمَ ويُحَددُ مَكَانَتَهُ ضمن شَبَكَةِ العَلاقَاتِ المَعرفيَّةِ والاجتِمَاعيَّة، ومِنْ مَنظُورٍ ثَقَافِيٍّ فإنَّ المَجْلِسَ أنتَجَ نَوعَاً مِنَ الهَيمَنَة الرَّمزيَّة مِنْ خِلالِ السَّخريَّةِ والإقصَاء، فَعِنْدَمَا يسخَرُ أبو عُبَيد مِن تَفسيرِ ابن دَاحَة ويَضحَكُ الحُضُورُ عَليهِ، يَتَجَلَّى المجلِسُ كآليَّةٍ إعَادَةِ تَرتِيبِ السُّلطَة دَاخِلَ الفَضَاءِ الشَّفوي، إزَاءَ مَا حَدَثَ مِن هَجرِ المَجلِسِ، وهو إقَصاءُ المَجلسِ لِخِطَابِ ابن دَاحَة ، حيثُ تتضِحُ طَبيعَة المَجَالسِ الثَّقافيَّة القَائِمَة عَلى قوَّةِ الخِطَابِ وحُجيَّتِهِ وبَلاغَتِهِ، ومِنْ بَابٍ

(25) الحيوان، ج3، ص402

آخرَ دَالٍ على حُضُور المَجَالِ التَّاريخي في نِظَامِ الخِطَاب الشِّفَاهي حضور أخبَارِ ابنِ جَدعَان وهُشَام بن المُغِيرَة ونصِّ الشَّاعِر الحِميَري في سيَاقٍ تَفسيريٍّ واحدٍ يؤسسُ لِذاكِرَة شفويَّة خَبَريَّة دَاخِليَّة في ظِلِّ مَنظومَة شيفَاهيَّة كُليَّة، استَطَاع الجَاحِظُ أن يُمَثِّلَهَا كِتَابيَّاً بأفضل أسلوبٍ بالرُّغمِ مِن صعوبَةِ الحِفَاظ على الأصواتِ والنَبر الخِطَابي على المستَوى الفَردِي لِكُلِّ شَخصِيَّة، فصُورَةُ أبي عُبيدٍ في المَرويَّةِ تَختَلفُ تَمَاملً عَن صُورَة ابن داحَة، وهذا الاختِلاف أساسُهُ قُدرَة الجَّاحِظ على نَقلِ نَمَط خِطابٍ وطَبِيعَته.

تَعكُسُ هذهِ المَرويَّات الشَّفويَّةالمكتُوبَةُ طَبيعَة المَجَالسِ ومَا يُحكَى فِيهَا فإذا كَانَت فِي الأولَى تُحَاكِي الحِوارَ الحِجَاجِي والفِعلِ السَّاخِر والذَلكِرَة التَّاريخيَّة، فَهِي في أخرَى تَتَنَاوَلُ العَجِيبَ الذِي لا يُمكِنُ تَصدِيقَهُ، لولا أنَّ قَائِلَهُ!!، إذْ يَروي الجَاحِظُ عَنِ النّظَّامِ أبي اسحَاق في مَجلِسِهِ: "وأخبرني إبو إسحاق إبراهيم بن سيّار النّظّام- وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان- أنّه شهد محمد بن عبد الله- يلقي الحجر في النّار، فإذا عاد كالجمر قذف به قدّامه، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجمر. كنت قلت له: إنّ الجمر سخيف سريع الانطفاء إذا لقي الرّطوبات، ومتى أطبق عيه شيء يحول بينه وبين النّسيم خمد، والحجر أشدّ إمساكا لما يتداخله من الحرارة، وأثقل ثقلا، وألزق لزوقا وأبطأ انطفاء، فلو أحميت الحجارة! فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى فارتبت به، فلما ثنى وثلّث اشتدّ تعجبي له، فقلت له: لو أحميت أواقيّ الحديد، ما كان منها ربع رطل ونصف رطل! ففعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأوّل والثّاني، وقد بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمري الحديد كما يستمري الحجارة؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق أن نتعرّف ذلك على الأيّام وكنت عزمت على ذبحه وتفتيش جوفه وقانصته، فلعلّ الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائبا ولا خارجا فعمد بعض ندمائه إلى سكّين فأحمي، ثم ألقاه إليه فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرف السّكين من موضع مذبحه، ثمّ خرّ ميّتا. فمنعنا بخرقه من استقصاء ما أردنا"[26]، والغَرِيُب أن الجَاحِظَ فِي مَروِيَّتهِ يَضَعُ جُمَلَتَهُ الاعتِرَاضيَّةِ (وكنّا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماع أو عيان) في إشَارَة إلى عَدَمِ قَنَاعَتِهِ بروايَةِ النَّظامِ الشِّفَاهيَة؛وهو طَعنٌ غَير مُبَاشرٍ في الأخِير، سيَّمَا أنَّهَا تَنَاولَت حَدَثَاً مُتَخَيَّلاً يَشبَهُ سَرديَّات وطُقُوسِ الديَانَات الهِندِيَّة وألعَابِ السَّحَرة، وكَان مِنَ الاجدَى لأبِي

([26]) الحيوان، ج4، ص 320

عُثمَان وهو العَارِفُ بالثَّقَافاتِ وطقُوسهَا أن يِنسُبَ الفِعلَ لتِلكَ الطَّقوس التِي دَخَلت إلى البصرةِ عبر الهُنُود والعَجم، إلا أنَّهُ وظَّفَهَا في سيَاقٍ آخَر، بَينَما تَكشفُ هذهِ المَرويَّة عن صيغَةٍ سرديَّةٍ من صيغِ المَجَالِسِ التِي تَميلُ إلى روايَةِ العَجِيب من أجلِ التَّسليَةِ والتَنَدُّرِ ولَفتِ النَّظرِ؛ في أن تُروى مَروِيَّات تُبنى عَلى أساسِ الخَبَرِ العَجيبِ وخَلقِ جوٍّ مِنَ الفُضُولِ والاصغَاء لمَا هو غيرُ مألوفٍ، وهذَا سببٌ آخر غيَّبَهُ الجَاحِظُ في تَعليلِ مَرويَّةِ النَّظَامِ الشفوي. وَفِي مَرويَّةٍ أُخرَى يَرويهَا الجَاحِظُ نِفسُهُ فِي مَجلِسِ مُوسَى بنِ عمران يَقولُ فيهَا: " ولقد دخل علينا فتى حدث كان قد وقع إلى أصحاب عبد الواحد بن زيد ونحن عند موسى بن عمران، فدار الحديث إلى أن قال الفتى: أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف، أو زيتونة وثلث، أو زيتونة وثلثي زيتونة، أو ما أشبه ذلك. بل أقول: أكلت زيتونة، وما علم الله من أخرى، فقال موسى: إنّ من الورع ما يبغضه الله، علم الله؛ وأظنّ ورعك هذا من ذلك الورع"[27] ، حيثُ يَتَمثَّلُ الشِّكْل المَجْلِسِيّ للمَرويَّةِ بِتَعددِ الأصواتِ: الفتَى، وموسى بنِ عمَران، وصوتُ الجَاحِظِ نفسه، حِيثُ تُمثَّلُ المَرويَةُ بوصفِهَا أداءً شِفَاهيَّاً ، وهو إطارٌ يحكُمُ الكثيرَ مِنَ المَرويَّاتِ في الكِتَاب التي تُنْشئ ذِاكِرَةً شفويّة مَكْتُوبَةً بمَوضوعاتٍ مثل السُّخريَة والخُرافَات والاخبَارِ التَّارِيخيَّة، والأحاديثُ والمناظراتِ الدينيَّة ، حيثُ تُؤدَّى عِبرَ مجْمُوعَةِ أشخَاصٍ يَجلُسونَ ويَتَشَافَهون، فالجَاحِظُ ينْقُلهُا إلى اللغَةِ مُحَافِظاً على خصوصيَّتِهَا السرديَّة المَجلِسيَّة، بِوصفِهَا نَمَطاً مِنْ أنَماطِ السَّرد الذِي يُمَثِّلُ المَوروثَ الشفوي بِدِقَّةٍ، فإن قِرَاءَةَ هذهِ المَرويَّات تُحِيل إلى طَبيعَةِ الكِتَاب إجمَلاً. لَقَد استَطَاعَ الجَاحِظُ أن يُوظِّف المَرويَّاتِ الشفوي ويُحَافِظ على شكِلهَا المَرن، لأهميَّتِهَا بِعَدِهَا قَنَاة نَاقِلَة للتُراث المَحلِّي والثَّقَافِي، فالذَّاكِرَةُ الشفويّة التِي تَجَسَّدتْ فِ مَرويَّاتِ الحَيوان مَاهِي إلا الصُّورَ الحّيَّة لذلك المَوروث، لَقَد أخرَجَ الجَاحِظُ المَرويَّات الشفوي المحليَّة من عُزلَتِهَا لَجعَلَ مِنها متنَاً أدبيَّاً يَتَموقعُ في الثَّقَافَة العَربيَّة تَحَظَى بالقُبولِ التَّدرِيجِي عِبر الزَّمن .

4. الخاتمة

أظهَرَ تَحليلُ المَرويّاتِ الشَّفويَّةِ الَّتي جَمَعَها الجاحِظُ—مِن أمثالٍ وَحِكاياتٍ وَأخبارٍ وَرِواياتٍ شَعبيَّةٍ قُدرَة ِ المُؤَلِّفِ على تَدوينِ الذَّاكِرَةِ الشَّفَويَّةِ وإضفاءِ طابَعٍ تَوثيقيٍّ عَلَيها، بِما يَجعَلُها جُزءًا

([27]) كتاب الحيوان، ج3، 43.

مِن نَسَقِ الثَّقافَةِ العَرَبِيَّةِ المكتوبَةِ حيثُ اتَّضَحَ أنَّ ما يُمكِنُ تَسميتُهُ بِـ السَّرْدِ الأركيولوجيّ الشَّفَوِيّ في كِتابِ الحَيَوانِ يُمَثِّلُ تَوَجُّها واعِيا نَحوَ تَسجيلِ مَلامِحِ البَصرَةِ الأثَرِيَّةِ وَطَبائِعِ أمكِنَتِها عَبرَ مَرْوِيّاتٍ مَحلِّيَّةٍ، تَتَعالَقُ فيها الذَّاكِرَةُ مَعَ الوَصفِ الجُغرافِيّ وَالاجتِماعِيّ لِلمَدينَةِ. وَبِذلِكَ يَتَحَوَّلُ الكِتابُ إلى سِجِلٍّ غَيرِ مُباشِرٍ لِتاريخِ البَصرَةِ، يَنقُلُ بِيئَتَها وَوِجدانَ سُكّانِها وَأثَرَ المكانِ في تَشْكيلِ النَّصّ. كَما كَشَفَتِ الدِّراسَةُ عن حُضورٍ واضِحٍ لِلبُعدِ الإثنوغرافِيّ في تَعامُلِ الجاحِظِ مَعَ المَرويّاتِ المَنقُولَةِ عَن جَماعَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ داخِلَ المُجتَمَعِ البَصريّ، إذ حافَظَ على مَحلِّيَّتِها، وَأبقى على خَصائِصِها اللُّغَوِيَّةِ وَالاجتِماعِيَّةِ، مِمّا سَمَحَ بِقِراءَةِ تِلكَ الجَماعَاتِ مِن خِلالِ أصواتِها وَطَرائِقِ تَعبيرِها الشَّفَوِيَّةِ. وَبِذلِكَ يُصبِحُ كِتابُ الحَيَوانِ وَثيقَةً ثَقافِيَّةً تُنقَلُ فيها صُورَةُ الجَماعَاتِ لا بوَصفِها مَوضوعًا خارِجِيًّا، بَل بوَصفِها ذَواتٍ تَتَكَلَّمُ عَبرَ ما تَرويهِ.

وَأخيرًا، أبرَزَ البَحثُ أنَّ الأدَبَ المَجلِسِيَّ احتَلَّ مَوقِعًا مُهِمًّا داخِلَ النَّصّ، إذ مَثَّلَت هذِهِ المَرويّاتُ مَصدَرًا لِخِبراتِ الحَياةِ اليَومِيَّةِ، وَمِنصَّةً لِانتِقالِ المَعارِفِ وَالحِكَمِ، وَمجالا لِتَداخُلِ الجِدِّ بِالهَزْلِ، مِمّا أضْفَى على الكِتابِ تَنَوُّعا أُسلوبِيّا وَثَراءً في البِنيَةِ السَّرْدِيَّةِ.

وَبِناءً على ما تَقَدَّمَ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ الجاحِظَ قَدَّمَ في كِتابِ الحَيَوانِ نَموذَجا فَريدا لِدَمجِ الشَّفَوِيّ بِالمكتوبِ، وَجَمعِ المَحَلِّيّ وَالعامّ، وَصِياغَةِ تاريخٍ ثَقافِيٍّ وَاجتِماعِيّ مَبثوثٍ في طَيّاتِ السَّرْدِ. وَهَذا ما يَجعَلُ الكِتابَ وَثيقَةً تُقْرَأُ في ضَوءِ عُلومِ اللُّغَةِ وَالبَيانِ وفي ضَوءِ دِراسَاتِ الثَّقافَةِ وَالهُوِيَّةِ وَالذَّاكِرَةِ الشَّفَوِيَّةِ، بوَصفِهِ عَمَلا حافِظَ على أصواتِ مُجتَمَعِهِ، وَخَلَّدَها في نَصٍّ سَيَظَلُّ مَفتوحًا لِكُلِّ قِراءاتِ المُستَقبَلِ.

5. المراجع

- باشو, ح. (1947). اثر البيئة في الشعر الجاهلي. مجلة الاديب, 3(3), 1–65. https://doi.org/https://archive.alsharekh.org/MagazinePages/MagazineBook/Al-ADIB/Al-ADIB_1947/Issue_3/index.html

-لومبار, ج. (1997). مدخل غلى الاثنولوجيا (ط1.). بيروت: المركز الثقافي العربي . - دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي ، سمير الخليل، دار الكتب العملية، بيروت،

- النوبختي, ا. ب. م. (2012). فرق الشيعة (ط1.). بيروت: منشورات الرضا .

-ابراهيم, ع. (2016). موسوعة السرد العربي. الامارات-دبي: قنديل للطباعة والنشر.

-عبد الرزاق, ز. (2012). كتاب الحيوان مصدرا لدراسة تاريخ البصرة. مجلة آداب البصرة, 1(63), 1–https://doi.org/https://www.basradab.edu.iq/?page_id=2867423 .

-ضيف, ش. (1960). تاريخ الادب العربي. مصر: دار المعارف.

-أونج, و. (1994). الشفاهية والكتابية .(182nd ed.) الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب.

-رزق, ع. م. (1991). علم الآثار بين النظرية والتطبيق. مصر: مكتبة مدبولي.

-الجندي, ع. (1991). في تاريخ الادب الجاهلي .(1st ed.) بيروت: دار التراث.

-شولير, غ. (2020). الشفاهية والمكتوب في الاسلام .(1st ed.) العراق-كندا: المركز الاكاديمي للابحاث.

-الخليل, س. (1971). دليل مصطلحات الدراسات الثقافية. بيروت: دار الكتب العلمية.

-الجاحظ, ابو عثمان. (1996). كتاب الحيوان. بيروت: دار الجيل.

-البغدادي الاسفراييني, ع. ا. (1977). الفرق بين الفرق .(2nd ed.) القاهرة: مكتبة دار التراث.